دِراسَةٌ سوسيولوجيّةٌ لِلمَرأةِ في رِوايَةِ "الطَّنطوريَّة" بِقَلَمِ رَضوي عاشور بِناءً على آراءِ لوسيان غولدمان

روح اله مهديان طرقبه (الكاتب المسؤول)
أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة لورستان، خرم آباد ، إيران
mahdian.r@lu.ac.ir
سبحان كاوسي
أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة كوثر، بجنورد، بجنورد ، إيران

Sociological study of women in the novel "Al-Tanturiyah" written by Razva Ashour based on the ideas of Lucien Goldman

Rouhollah Mahdian Torghabeh (responsible writer)
Assistant Professor , Department of Arabic Language and Literature , Lorestan University ,Khorramabad, Iran
Sobhan Kavosi
Assistant Professor , Department of Arabic Language and Literature , Al - Kawthar University , Bojnord , Bojnord ,Iran

المُلَخَّص:

تَعكسُ الرِّوايَةُ واقعَ المُجتَمَع، أكثَرَ من أيِّ نَوعٍ أدَبيٍّ آخَرَ، وَقَد تَمكَّنَت الرِّوائيّاتُ من تَصوير القَضايا المُقلقَة للمَرأَة المُعاصرَة من وُجهَة نَظَرهِنَّ. لَقَد خَصَّصَت الرِّوائيَّةُ المصريَّةُ ((رَضوي عاشور)) روايَتَها ((الطَّنطوريَّة)) للقَضيَّة الفلَسطينيَّة، حَيثُ تَناوَلَت مَشاكلَ المَرأَة الشَّرقيَّة في مُجتَمَع مزَّقَتهُ الحَربُ وَالإحتلالُ. يمكنُ تَصنيفُ الشَّخصيات النِّسَوية في هذه الرِّوايَة إلى ثَلاثَة أجيال. هذه الشَّخصيّاتُ الرِّوائيَّةُ وَما يَمرُّ عَلَيهنَّ من أحداث وَأزَمات، تُعطي صورَةً واضحَةً عَن الوَضع الاجتماعيِّ لِلمَرأَة الفلَسطينيَّة على مَدَي السَّبعينَ سَنَة الماضيَة. إنَّ هَيمَنَةَ النِّظام الأَبَويِّ، وَأنواع العُنف وَالتَّمييز، وَالقُيود الاجتماعيَّة على المَرأة، وَالتَّمايز المَوجود بَينَ الأجيال، وَجُهود المَرأة اليَوم من أجل النَّشاط الاجتماعيِّ، تُعَدُّ من أهَمِّ البُنى الَّتي تَحكُمُ المُجتَمَعَ النِّسائيَّ الفلَسطينيَّ وَالَّتي وَرَدَت في روايَة ((الطَّنطوريَّة)). سَتَعتَمدُ الدِّراسَةُ الحاليَّةُ على نَظَريّات ((لوسيان غولدمان)) الَّذي يعتَقدُ أنَّ الرِّوايَةَ تَعكسُ المَوقفَ التّاريخيَّ لمَجموعَة أو فئَة ضمن إيديولوجيا المُسيطرَة على تلكَ الطَّبقَة. تَعتمدُ نَظَريَّةُ ((غولدمان)) البنائيَّةُ التَّكوينيَّةُ على العَلاقَة بَينَ بُنيَة المُجتَمَع وَبُنيَة الرِّوايَة، حَيثُ تَكونُ الشَّخصيّاتُ الإشكاليَّةُ مَسؤولَةً عَن تَمثيلِ هذه البُني. إذَن فَإنَّ مَوضوعَ البَحث هُوَ كيفيَةُ انعكاسِ البُنَي الاجتماعيَّة الَّتي تَحكُمُ المُجتَمَعَ النِّسَويَةَ الفلَسطينيَّةَ في روايَة "الطَّنطوريَّة."

الكلمات المفتاحية: الدِّراسَةُ السّوسيولوجيةُ للرِّوايَة، المَرأة، رَضوي عاشور، الطَّنطوريَّة، لوسيان غولدمان.

Abstract:-

The novel, more than any other literary genre, reflects the realities of society, and female novelists have been able to portray the troubling issues of contemporary women from their point of view. Egyptian novelist "Razva Ashour" has devoted her novel "Al-Tanturiyah" to the Palestinian issue, during which she addresses the problems of Eastern women in a war-torn and occupied society. The women's community in this novel spans three generations, and the characters of the novel and what goes on in them give a clear picture of the social situation of Palestinian women over the past seventy years. The dominance of the patriarchal system, the types of violence, discrimination and social restrictions for women, the differences between generations and the efforts of modern women for social activism, are among the most important structures governing Palestinian society, which in the novel "Al-Tanturiyah" represented well. The present study will be based on the theories of Lucien Goldman, who believes that the novel reflects the historical position of a group or class in the form of a worldview of that class. His theory of formative constructivism is based on the relationship between social structure and the structure of the novel, in which problematic characters are responsible for representing these structures. Therefore, the issue of research is the quality of reflection of the social structures that govern the Palestinian women's community in the novel "Al-Tanturiya".

Key words: Sociology of the novel, Woman, Razva Ashour, Al-Tanturiyah, Lucien Goldman.

١. المقدمة:

دخول المرأة مجال النشاط الاجتماعي في الخطاب شبه الحديث الذي يحكم المجتمعات الشرقية وخاصة العربية، لقد جعل قضية الهوية الاجتماعية الأنثوية مهمّة في هذه المجتمعات الأبوية بشكل عام. (ن.ك. خجسته و فسائي، ١٣٨٦: ٢٥). من ناحية أخرى، شهدت الرواية، باعتبارها النوع الأكثر شعبية في الأدب المعاصر، قبولًا متزايدًا من قبل النساء، سواء كاتبات أو قارئات، حتى أنه في بعض الأحيان يكون هناك حديث عن تأنيث الرواية. (جوادي يگانه، و ارحامي، ١٣٨٨: ٢٢).

الرواية العربية، باعتبارها فنًا واقعيًا، هي أيضًا أداة جيدة لانعكاس مثل هذه القضايا وتعكس العديد من الهياكل الاجتماعية القديمة والجديدة في الحياة النسوية في المجتمعات العربية. تعتبر رواية "الطنطورية" التي كتبتها رضوي عاشور من الأعمال التي يمكن من خلالها دراسة جودة تمثيل البني الاجتماعية في عالم الرواية. على الرغم من أن الموضوع الرئيسي لهذه الرواية هو مأساة فقدان الأرض والتهجير والحرب والأضرار التي سببتها، إلا أنها ومن خلال هذه القضية المركزية، أثارت العديد من الموضوعات الاجتماعية و"المرأة" جزء رئيسي منها.

١-١. عرض للمشكلة

دراسة السوسيولوجية للمرأة في رواية "الطنطورية" بناء على نظريات لوسيان غولدمان هي موضوع الدراسة الحالية و يسعي المؤلفان للإجابة على أسئلة مثل: ما هي الصور النمطية والتراكيب الاجتماعية للمجتمع النسوي الفلسطيني التي تنعكس في رواية "الطنطورية"؟

هل تمثل الشخصيات النسائية في هذه الرواية فئات إجتماعية مختلفة في العالم خارج الرواية؟ وهل الموضوع الإجتماعي للرواية يتفق مع توصيف الشخصية والحبكة؟

وهل الصورة الكاملة للمرأة في هذه الرواية تتوافق مع التصوير العام للمجتمع الذي يعدّ مصدر الرواية؟

هل استطاعت الكاتبة تصوير تنوع الآراء على مختلف المستويات الاجتماعية في اللهجة

ولغة الشخصيات النسائية بنظرة واقعية؟ وأخيراً، إلى أي مدي نجحت الكاتبة في ربط بنية الرواية ببنية المجتمع النسائي العربي الفلسطيني؟

١-٢. خلفية البحث

قد تمت دراسة روايات رضوي عاشور في العديد من المقالات والأطروحات ومن مختلف الجوانب، ومن أهمها:

قد تناولت سميرا حيدري راد في أطروحته لنيل درجة الماجستير وعنوانها ((شَخصيةُ المَرأة في أعمالِ رَضوي عاشور الرِّوائيةِ (الطَّنطوريةُ، أثقَلُ مِن رَضوي و الصَّرخَةُ نَموذَجاً))) (١٣٩٦) طريقة توصيف الشخصيات والطرق المباشرة وغير المباشرة في إدخال الشخصيات الأنثوية في هذه الروايات الثلاث، وحاولت الباحثة شرح حِيَل المؤلف الفنية في توصيف الشخصيات.

وقد ألّف صلاح الدين عبدي وزملاؤه ثلاثة مقالات عناوينها: "سامع السرد وموقعه في رواية الطنطورية لرضوي عاشور" (١٣٩٨)، و"تمثيل أساليب استحضار الأقوال السردي في رواية المقاومة الفلسطينية، (الطنطورية لرضوي عاشور نموذجا) "(١٣٩٨)، و"دراسة وتحليل التبئير في رواية الطنطورية لرضوي عاشور" (٢٠١٦)، فقد درسوا و حلّلوا هذه الرواية من الناحية الفنية، معتمدا على الآراء والنظريات الجديده في السرد الروائي. ولكن النقد الاجتماعي لأعمال رضوي عاشور لم يكن موضوعًا لأي بحث علمي أو أكاديمي حتى الآن.

١-٣. منهج البحث

سيتم إجراء هذا البحث بالمنهج الوصفي التحليلي، فإذن يستخرج أولاً المكونات التي ستناقش في التحليل الاجتماعي للمرأة في رواية "الطنطورية" ومن ثم سيتم تحليل النماذج المستخرجة معتمدا على نظريات الخبراء في مجال سوسيولوجيا الرواية، وخاصة لوسيان غولدمان.

١-٤. الأسس النظرية للبحث

الأدب هو تمثيل فني لواقع المجتمع. الأدب أساسه اللغة، واللغة هي وسيلة للتواصل بين أفراد المجتمع. وهكذا، فإن الأدب الذي قد نشأ من الثقافة واللغة، هو ظاهرة اجتماعية

تتمثل وظيفته في نقل التجارب الحية بين البشر. وبالتالي، فإن النص (Text) يتكون في سياق النص (Context) ويتأثر به بشدة، ولا يمكن بأي حال من الأحوال دراسة النص وتقييمه دون النظر إلى سياقه الاجتماعي والثقافي. لقد درس العديد من العلماء - مثل لوك وغولدمان وباختين وغيرهم - هذا الأساس الاجتماعي للأدب، فكانت نتيجة جهودهم تقديم حلول لشرح العلاقة بين البنية الأدبية للنص وبنية المجتمع؛ لأن الهياكل الأدبية المقابلة للهياكل الاجتماعية موجودة بوعي أو بغير وعي في الأعمال الأدبية. يحاول الباحث في مجال سوسيولوجيا الأدب، أن يجد هذه الهياكل في النص، ثم يصنفها ويحللها تحليلا علميا.

٥-١. سوسيولوجيا الرواية

النقد الاجتماعي أو سوسيولوجيا النص يعني الانتباه إلى كيفية التعبير عن القضايا الاجتماعية في النص. الغرض من هذه الأبحاث هو فهم بنية ومحتوي النص من منظور اجتماعي (ن.ك. يداللهي و صباغ، ١٣٩٣: ٦١). في الواقع، يسعي سوسيولوجيا الرواية إلى فحص المحتوي الاجتماعي للرواية، على أساس أن سرد الأحداث هو أداة للتمثيل الفني للواقع الاجتماعي والثقافي. ففي مثل هذه الدراسات يبحثُ عن العلاقات الدائرة بين الرواية والمجتمع الذي نشأت فيه، علماً بأن كلاً منهما يؤثر على الآخر في علاقة جدلية (جوكاري و همكاران، ١٣٩٨: ٢٦٤). يعد النقد السوسيولوجي للرواية أحد أكثر أنواع النقد الروائي استخداماً والذي يوفر امكانية قراءة اجتماعية لنص الرواية بناءً على الارتباط بين الهياكل الاجتماعية والبنية الروائية. الخصائص الاجتماعية للشخصيات وأفعالها الهادفة، المواضيع الإجتماعية المتكررة، الموقف الطبقي للمؤلف وانعكاسه في الحبكة والتوصيف وما إلى ذلك تعدّ من الموضوعات التي تناقش في سوسيولوجيا الرواية. (قنبري و دايي‌زاده جلودار، ١٣٩٦: ١).

٦-١. لوسيان غولدمان والنظرية الاجتماعية للرواية (١٩١٣ - ١٩٧٠)

الناقد الفرنسي ((لوسيان غولدمان)) كان أول من تكلّم عن نظرية متماسكة لسوسيولوجيا الأدب وفيما بعد حصر بحثه في سوسيولوجيا الرواية. قد تأثّر غولدمان بأفكار ((جورج لوكاش)) واعتبر الخصائص الاجتماعية للعمل الأدبي نتيجة الانسجام بين الهياكل والبني الأدبية والبني العقلية للمجموعات والطبقات الاجتماعية في العالم

الخارجي. (ر. غولدمان، ١٣٧١: ٦٩).

تستند البنائية التكوينية لغولدمان على مبدأ أن تصرفات الشخصيات في الرواية هي في الواقع ردّ فعل هادف على وضعهم الاجتماعي (ر. غولدمان، ١٣٧٧: ٣١٥) ويعتقد أن كتابة الرواية ليست مهمة فردية بل نشاط جماعي، والمبدع الحقيقي للروايات هو طبقات المجتمع. فإذن تتضاءل شخصية الكاتب في نظرية غولدمان، و في مثل هذه الدراسات، تصبح العلاقة بين بنية الرواية وبنية المجتمع الذي تم إنشاء الرواية فيه مهمة جداً؛ فتُعَدّ الرواية انعكاساً للحياة اليومية للطبقات الاجتماعية، ممثلة في شكل شخصيات روائية. (غولدمان، ١٣٧١: ٢٩).

٧-١. سوسيولوجيا المرأة في الرواية

استطاع الرواية بشكل عام وأعمال الروائيات بشكل خاص أن تعكس صورة لقضايا المرأة وهمومها ووجهة نظرها للمجتمع. فقد أدّي عدم الاهتمام الكافي بقضايا المرأة في علم الاجتماع التقليدي إلى إهمال الاهتمامات الاجتماعية للمرأة للمشاركة الفعالة في المجتمع. لكن الواقعية السائدة من النوع الجديد توفر للباحثين صورة أكثر أو أقل وضوحاً عن تجارب النساء ومشاكلهن. (ر. كمالي و آخرون، ١٣٨٨: ١٠١).

الشخصيات النسائية التي أنشأها الروائيون لها تأثير مزدوج على جمهور الإناث، ما يجبرهن دون وعي على التعايش معهن. ففي الواقع، وجدت الكاتبات أن نوع الرواية أكثر قدرة من الأنواع الأدبية الأخرى على إظهار الجوانب الخفية لحياة المرأة الشخصية والاجتماعية من خلال مقاربة واقعية لجمهور الذكور والإناث؛ الجوانب التي لم يتم دراستها سابقاً في الأعمال الأدبية والفنية وكذلك في البحث الاجتماعي. ولذلك يمكن اعتبار الرواية من أفضل مجالات البحث في سوسيولوجيا المرأة؛ لأن الشخصيات النسائية وعلاقاتهم بالرجال وبيئتهم هي في الواقع تمثيل للاهتمامات والقضايا التي تواجهها النساء في ذلك المجتمع في العالم الحقيقي.

٢. رضوي عاشور و "الطنطورية"

رضوي عاشور هي روائية مصرية مشهورة، ولها العديد من الأبحاث حول القضايا الاجتماعية بالإضافة إلى أعمالها الأدبية. وقد خصصت الكاتبة روايتها ((الطنطورية))

لقضية فلسطين من بداية الاحتلال الصهيوني إلى السنوات الأولى من القرن الحادي والعشرين، فمع أنها كاتبة مصرية، ولكنها بسبب الشخصيات التي خلقها، تعكس جزءاً كبيراً من البني الاجتماعية التي تحكم المجتمعات العربية، وفي ((الطنطورية)) على وجه الخصوص، يمثل المجتمع الفلسطيني الذي مزقته الحرب. الراوي لهذه الرواية امرأة اسمها "رقية"، من قرية تسمي "الطنطورة" بالقرب من حيفا على شواطئ البحر الأبيض المتوسط، وقد شهدت في مراهقتها غزو القوات الصهيونية للمدن والقري الفلسطينية. قُتل والدها وشقيقاها خلال مقاومة القوات الشعبية أمام المحتلين، وهربت ((رقية)) مع والدتها إلى لبنان. وفي لبنان، تزوجت من ابن عمها الطبيب أمين، وقضت بقية حياتها بعيداً عن الأوطان في لبنان والإمارات العربية المتحدة وفي النهاية مصر. محور القصة هو ذكريات وملاحظات رقية من السنوات الصعبة التي قضتها في ظل الاحتلال الصهيوني لفلسطين ولبنان، وهي تسجلها في مصر بإصرار من نجلها حسن.

١-٢. حضور ثلاثة أجيال من النساء في رواية "الطنطورية".

تتكلم الراوي في "الطنطورية" عن الأحداث التي وقعت خلال العقود السبعة الماضية في فلسطين المحتلة، فلشخصية "رقية" وغيرها من النساء والفتيات الفلسطينيات دور محوري في هذه الرواية، و يمكن تصنيف هذه الشخصيات النسائية إلى ثلاثة أجيال من حيث الخصائص الثقافية والاجتماعية:

١-١-٢. الجيل الأول

الجيل الأول من النساء في هذه الرواية هي والدة رقية (زينب) وخالتها (حليمة) ونساء أخريات في منتصف العمر أو نهاياته في زمن العدوان الصهيوني. وميزة هذه الشخصيات هي عدم توافقهن مع الظروف الاجتماعية والسياسية الجديدة أو عدم استعدادهن لتغيير سلوكهنّ وتعديل أفكارهنّ. فمثلاً تتكلم الراوية عن استغراب والدتها عن جهاز جديد يسمي "راديو": ((احتَلَّ الجهازُ الخَشَبيُّ الكبيرُ مَكانَةً في البَيت... ولَكنَّ أُمّي لَم تَكن تُعيرُهُ اهتماماً. رُبَّما كانَت تَثقُلُ عَلَيها تلك الأصواتُ بِكلامها الَّتي تُكرِّرُ أنَّها لا تَفهَمُهُ. هَل كانَت فعلاً لا تَفهَمُهُ أم كانَت تَدرَءُ عَن نَفسها مَزيداً مِنَ المَخاوِفِ الَّتي لا طاقَةَ لَها على حَملِها؟ تَجلِسُ مَعَ أختِها وتَتَبادَلانِ الشَّكوي وَالهُموم)) (ص ٣٥). فالراوية تَشُكُّ فيما إذا كانت

والدتها لا تفهم حقًا ما تسمعه في الراديو، أم أنها لا تريد التورط في سماع أخبار مزعجة، ولكن هذه المرأة التي تمثل المجتمع النسائي الفلسطيني التقليدي،تفضل الشجار مع أختها على استماع الأخبار من الراديو.

٢-١-٢. الجيل الثاني

الراوية (رقية) تمثل الجيل الثاني من النساء اللواتي يلعبن دوراً في هذه الرواية. النساء اللواتي قد قضين معظم حياتهن في ظلّ الاحتلال والحرب والنزوح والهجرة القسرية. فهذا الجيل من النساء أكثر انخراطًا في الأنشطة الاجتماعية محاولا التعايش مع الظروف الجديدة. تقوم هؤلاء النساء أحيانًا برعاية الأسرة في غياب أزواجهن أو بعد شهادتهم، وعادة ما يكون لديهن علاقات اجتماعية متماسكة مع نساء أخريات من نفس الجيل. فعلي سبيل المثال، نرى ((رقية)) أثناء إقامتها في بيروت، تذهب إلى مخيم شاتيلا بالإضافة إلى أداء مسؤولياتها في المنزل وتحاول أن تلعب دورها الاجتماعي في تعزيز القوي المادية والمعنوية للنازحين: ((أُرَتِّبُ البَيتَ ثُمَّ أَنزِلُ إلى شاتيلا. لا أعودُ إلى البَيتِ إلّا بَعدَ العَصرِ. لكلِّ يومٍ جَدوَلُهُ. دُروسُ مَحوِ أُمّيةٍ للكبارِ. دُروسُ التَّقويةِ لأطفالِ المَرحَلَةِ الإبتدائيةِ... زياراتٌ لا يخلو الجَدولُ الأسبوعيُّ واليوميُّ أحياناً منها. نساءٌ أدخُلُ بُيوتَهُنَّ لأوَّلِ مَرَّةٍ أو نساءٌ تَعَرَّفتُ عَلَيهِنَّ سابِقاً فَوَجَبَتِ الزِّيارَةُ للعَزاءِ أو التَّهنِئَةِ أو رُبَّما لِحَلِّ إشكالٍ عائليٍّ قَصَدَنَني فيهِ)) (ص ١٤٥). في هذه المرحلة وبعض المواقف المماثلة، تستخدم ((رقية)) أو أقرانها كنشطاء اجتماعية كل طاقاتهن لإحداث تأثير إيجابي في حياة النساء من حولهم. تعد محو الأمية لربات البيوت، وتقوية القوي العلمية للطلاب، ومحاولة حل المشاكل الأسري، والتعاطف مع الأمهات الثكلي وما إلى ذلك جزءًا من هذه النشاطات الاجتماعية.

٣-١-٢. الجيل الثالث

يشمل الجيل الثالث من نساء ((الطنطورية)) فتيات في سن المراهقة المبكرة أو سني الشباب، وهؤلاء الفتيات يختلفن كثيراً عن الجيلين السابقين. يتجلي هذا الاختلاف أحيانًا في نوع الملابس ونوع العلاقات الاجتماعية وأسلوب الحياة، وأحيانًا في الأيديولوجية ووجهة نظرهنّ للعالم. يمثل هذا الجيلَ بعضُ الفتيات الصغيرات المنتميات إلى التنظيمات الجهادية، وكذلك أحفاد ((رقية)) و ابنتها ((مريم)). تقول ((رقية)) عن إحدى صديقاتها التي

تشكو من ابنتها الصغيرة:

((تَشكو مِن ابنَتِها الصُّغري العَنيدَةِ الَّتي تُصِرُّ على مُواصَلَةِ تَعَلُّمِها وَ العَمَلِ مَعَ الفِدائيةِ...

- البِنتُ تَطلَعُ مِنَ الصُّبحِ وَ لا تَرجعُ إلّا المَساءَ، وَ تَقولُ بِاتَدَرَّب على السِّلاح!!... كلامٌ بَينَنا يا ستّ رُقَيّة لا يطلَع بَرَّة: جارتُنا رَأَتها مَرَّتَين تَقِفُ مَعَ نَفسِ الشّابّ. سَأَلتها: مَا المَوضوعُ؟ قالَت: زَميلي في التَّنظيم. قُلتُ لَها: زَميلُك لا تَقِفي مَعَهُ بِشَكلٍ مُتَكرِّر، لا يصحّ. لَو رايدك يتَقَدَّم يخطبك. نَسأل عَنهُ. هُوَ مِن دارِ مَن؟ ضَحكت و قالَت إنَّها لا تُفَكرُ في الزِّواج. وَلا هُوَ يفكرُ فيه. قُلتُ لَها إذَن لا تُطيلي الوُقوفَ مَعَهُ فَتُصبِحُ سيرَتُنا على أَلسِنَةِ النّاسِ)) (ص ١٤٧).

تمثل كلمات هذه الأم عن ابنتها الصغيرة التي ربما تكون مختلفة جداً عن أختها الكبري ووالدتها، الاختلافَ الكبير بين جيل الأمهات الكبار والجيل الثالث. الجيل الذي يعتبر مواصلة تعليمه حقًا غير قابل للتصرف، وله وجهة نظره الخاصة إلى علاقاته مع الجنس الآخر وخارج إطار الزواج، و يتدخل كعنصر فاعل في المجالات الاجتماعية والسياسية، بل يشارك في التدريبات العسكرية.

٣. دراسة سوسيولوجية المرأة في ((الطنطورية))

وبما أن منهج هذا البحث هو دراسة الوضع الاجتماعي للمرأة في رواية "الطنطورية"، فإن القضايا المتعلقة بالمجتمع النسائي في هذه الرواية ينبغي تصنيفها في شكل هياكل اجتماعية متكررة وصور نمطية. من خلال دراسة المواضيع الاجتماعية المرتبطة بالمرأة، و خاصة المرأة الفلسطينية التي تلعب دوراً في هذه الرواية داخل وخارج الحدود الفلسطينية، يمكن دراسة الهياكل الاجتماعية السائدة في مساحة الرواية تحت العناوين التالية:

٣-١. هيمنة النظام الأبوي

في الثقافة الأبوية، يعتبر الرجل العنصر المتفوق، وهو المبدأ والقاعدة، وتوضع المرأة كعنصر غير ضروري وغير طبيعي في المركز الأدني وتعتبر طفيل الذكر. (ن.ك. دوبوار، ١٣٨٠: ٣٢/١). بهذه الطريقة، أصبحت المرأة فعلاً غير مهمة بالنسبة "للآخر" من قبل

الرجال (خجسته و نسائي، ١٣٩٦: ٢٤).

العديد من المجتمعات الشرقية، وخاصة في العالم العربي، لم تتمكن بعد من التحرر من أغلال النظام الاجتماعي الأبوي وهيمنة الجنس الذكوري على جميع جوانب حياة المرأة، فهذه الهيمنة تشمل على أسلوبهن في اللباس، ومستوي النشاط الاجتماعي، والحق في اختيار الزوج أو تسمية الطفل في أيامنا الحاضر. فبالطبع، في الفترة الزمنية التي تناقشها رواية "الطنطورية"، و كلما رجعنا في الزمن إلى الوراء، يزداد الأوضاع توتراً ويزداد السلوك الأبوي شدةً و صرامةً. فنذكر فيما يلي أبرز مظاهر النظام الأبوي الذي يحكم التعامل الاجتماعي للشخصيات في رواية "الطنطورية".

١-١-٣. هيمنة الأب الرمزية على الأسرة

هذه الهيمنة هي نتيجة ثقافة تم تشكيلها وترسيخها على مر القرون من قبل الأجيال المتعاقبة. العديد من العادات في الثقافة الأبوية هي نتيجة هذه الهيمنة الرمزية. العادات(Habitus)، من وجهة نظر بورديو، تشير إلى السلوكيات التي يستوعبها البشر ويتصرف بموجبها دون وعي طوال حياته. (فكوهي، ١٣٨٤: ١٤٦). تذكر ((رقية)) في ذكريات طفولتها هذه الصورة من والده:((... أبي الَّذي يأمُرُ وَينهي وَلا نَجرؤُ أنا و إِخوَتي، على رَفعِ عُيونِنا خَشيةَ أن تَلتَقي بِعَينَيهِ. نَقِفُ في حَضرَتِه كالعَسكرِ في وَضعٍ ثابِتٍ، لا صَوتَ وَلا حَركَةَ)) (ص ٥٣). في هذه الصورة يشبه الأب قائدا عسكريا قويا يمارس السلطة دون عنف بفضل قوانين محددة سلفا.

في صورة أخرى تجمع الراوية هذه الهيمنة المتشددة للرجال في فضاء الأسرة مع خصومات وصراعات الجماعات المسلحة خارج البيت: ((الرِّجالُ مُنخرِطونَ في الفَصائِلِ، لكلٍّ فَيصَلٍ مَكتَبُهُ وَمنطَقَتُهُ وَشَبابُهُ المُسَلَّحُ. يختَلِفونَ فَيشتَبِكونَ كالدُّيوك. يا إلهي! دُيوك مُسَلَّحَةً! وَدُيوك في البَيتِ أَيضاً. يعودونَ لِنسائِهِم يأمُرونَ وَينهَونَ)) (ص ١٤٦). ففي هاتين الصورتين، تظهر بوضوح شخصية الأب (الرجل) وسيطرته غير المشروطة على زوجته وأطفاله.

٢-١-٣. حرمان المرأة من المكانة اللائقة بها

من أهم سمات المجتمع الأبوي، تدني مستوي سلطة النساء والفتيات، حتى في معظم

القرارات الشخصية. يعد اختيار الزوج ووقت الزواج من هذه القرارات التي لا تشارك الفتيات كثيراً في اتخاذها عادة. بالطبع، في نفس المجتمع التقليدي المعنى أيضا، تعتبر آراء الفتيات حول الخطيب مهمة أحيانًا على ما يبدو؛ لكن الأعراف وما يجب فعله وما لا يجب فعله في هذا النظام الاجتماعي لا يزال يلقي بظلاله على سلوكهن وكلامهن ويحد من حقهن في الاختيار. فهذه ((رقية)) بعد استشهاد والدها وشقيقيها تعيش في لبنان مع والدتها في السادسة عشرة من عمره، عندما يتقدم عمّها ليخطبها لابنه ((أمين)):

((- سَنَأخُذُ رُقَيةَ لأمين، ما رَأيك؟

- الرَّأيُ رَأيك يا أبوالأمين، رُقَيةُ ابنَتُك، وَمَن يرِدها يطلُبها منك.

استَدارَ لي عَمِّي وَقالَ:

- ما قَولُك يا رُقَيةُ؟

لَم أنبُس بِحَرفٍ. في اللَّيلِ بَكيتُ)) (ص٨٠).

تصمت ((رقية)) رداً على عمها، ربما لأنها تعلم أن موافقة والدتها الضمنية على الاقتراح لا تترك لها مجالًا للموافقة أو المخالفة؛ لكن بكاءها بعد سماع العرض ربما يرجع إلى أنها تنتظر عودة الصبي الذي خطبها قبل عامين، والآن وبعد احتلال الأراضي الفلسطينية لا يوجد أي خبر عنها. نفس الشاب الذي قبلت رقية على الفور وببساطة طفولية عرض زواجه، وتم توبيخها لردها الصريح والسريع. ((... أبوك يريدُ أن يعرِفَ رَأيك قَبلَ أن يعطيه الجَوابَ... ما رَأيك؟ كانَت أمِّي تَتَوَجَّهُ لي بِالسُّؤالِ.... قُلتُ: أوافِقُ. جاءَت عِبارَتي واضِحَةً وَبِصَوتٍ عالٍ. نَهَرَتني: سُبحانَ اللّهُ، طق شرش الحيا! قولي اللّي تشوفوه، قولي الرَّأيُ لِأَبوي!)) (ص ١٢). رد فعل الأم هذا هو في الواقع محاولة لتذكير الصور النمطية المقبولة في مجتمع لا يحب الاجابة الصريحة للفتاة في قبول عرض الزواج.

مثال آخر على حرمان المرأة من حق الاختيار وعدم الاعتراف بهذا الحق في القرارات المهمة، هو تسمية الطفل. تقول ((رقية)): ((عَمِّي أبوالأمين هُوَ الَّذي سَمّي صادِقَ و سَمّي حَسَنَ. سَمّاهُما بَعدَ أن وَضَعتُهُما فَهُوَ لا يسَمّي قَبلَ الوِلادَةِ. يطمَئِنُّ أوّلاً على صِحَّةِ الوالِدَةِ وَالوَليدِ ثُمَّ يسَمِّي)) (ص ٩٧). فإذن ليس الأب والزوجة وحدهما صاحب الأمر و ذا تأثير

مباشر على المرأة وقراراتها في النظام الأبوي الفلسطيني، فإن والد زوج رقية هو المسؤول عن تسمية أبنائها، و يسميهما باسمي شقيقي رقية. اما "رقية" فتأخذ زمام المبادرة قبل ولادة طفلها الثالث وتعلن اسمها مقدما، سواء كانت ذكراً أو أنثي: ((وَعِندَما حَمَلتُ الوَلَدَ الثّالِثَ، أعلَنتُ وَأنا بَعدُ حُبلي في شَهريَ الخامِسِ: إن جاءَتِ البِنتُ أسمّيها وِصال، وَإن كانَ وَلَد يكونُ عَبدالرَّحمن)) (نفس المصدر).

٣-١-٣. تقوية النظام الأبوي من قبل المرأة

لا شك أن سيطرة الرجل على الأسرة تُعَدُّ جزءًا من الأعراف والعلاقات الثقافية في النظام الأبوي، كما تم دعمه وتعزيزه من قبل النساء في هذه المجتمعات على مر القرون، وهذا يعني أن النساء والفتيات يتقبلن تفوق الرجال تدريجياً، ويؤيدنه في سلوكهن ونشاطهنّ الاجتماعي. ففي الفصول الأولى من الرواية تتحدث ((رقية)) عن أيام الجمعة واختلافها عن الأيام الأخرى: ((... وَ نُسَخِّن ماءً ثَلاثَ مَرّاتٍ فَيَتَحَمَّمُ أبي أوَّلاً ثُمَّ أَخَوايَ. يرتَدونَ ثيابَهُم وَ يذهَبونَ إلى المَسجِدِ لِلصَّلاة)) (ص ٤٧). لقد أصبحت خدمة النساء والفتيات للرجال والفتيان في المنزل، صورة نمطية في المجتمعات التقليدية، والخروج عن هذه الأنماط يعَدُّ انتهاكاً لسنن اجتماعية اعتنقها الجميع.

وعلى الرغم من أن الفتيات في الأجيال الجديدة يحاولن تحرير أنفسهن من هذه الصور النمطية والأعراف الأبوية، والتمتع بالاستقلال والاختيارات القانونية من خلال مواصلتهن للتعليم ومطالبة حقهن في اختيار الزوج ووقت الزواج، إلا أن نساء الجيل السابق يواصلن تشجيع هؤلاء الفتيات على اتباع تلك القواعد والقوالب النمطية الأبوية. تقول صديقة رقية عن ابنتها البالغة من العمر ١٩ عامًا:((البِنتُ وَفَّت التِّسعَةَ عَشَرَةَ وَ تَقولُ إنَّها لا تُفَكِّرُ في الزِّواج! في سِنِّها كانَ وَرائي وَلَدٌ وَ بِنتٌ وَحُبلي في الثّالِث)) (ص ١٤٨). وبالطبع هناك بعض النساء اللاتي قد أدركن الفرق بين الأجيال وقبلن هذا التغيير في القيم الاجتماعية والثقافية؛ ومنها الراوية التي تقول رداً على هذه المرأة ((زَمَنٌ غَيرُ زَمَنٍ يا خالَة...)) (نفس المصدر).

٣-٢. العنف ضد المرأة

العنف ضد المرأة في النظام الأبوي غالبًا ما يكون رمزيًا. فالعنف الرمزي يعني أن العامل المهيمن، يفرض مطالبه على الطرف الآخر دون استخدام القوة علانية، ومع ذلك

يضفي الشرعية على هيمنتها. هناك أنواع مختلفة من هذا العنف قد ترسّخت في المناسبات اليومية بين الرجال والنساء في المجتمعات التقليدية، حيث تشارك النساء أنفسهن في إدامتها من خلال الهياكل والمناسبات الثقافية والاجتماعية المتبعة في مثل هذه المجتمعات. وفيما يلي بعض الأمثلة عن العنف ضد المرأة الذي انعكس في رواية "الطنطورية":

١-٢-٣. العنف الكلامي

ربما يكون العنف الكلامي هو أكثر أشكال العنف ضد المرأة شيوعًا، فهذا النوع من العنف شائع بين الزوجين وخاصة في العائلات التقليدية. لكن النقطة الجديرة بالملاحظة في دراسة أنواع العنف ضد المرأة في رواية "الطنطورية" هي أن العديد من حالات العنف، بشكل مباشر أو غير مباشر، تتأثر بظروف الحرب واحتلال العدو المعتدي الصهيوني. فعلي سبيل المثال، تصف ((رقية)) العنف الكلامي ضدّ والدتها وإياها على النحو التالي: ((و يبدو أبي كحَقلِ ألغامٍ، تَنفَجِرُ ألغامُهُ لَغماً وَراءَ لَغمٍ في وَجهِ أمّي وَوَجهي...)) (ص ٣٧).تشبيه الأب بحقل الألغام، وتشبيه سلوكه العنيفة مع زوجته وابنته بتفجير ألغام متتالية، لا يخلوان من الدلالات السيميائية؛ لأن هذا الرجل يشاهد احتلال أراضي أجداده من قِبل عدو مدجج بالسلاح وهو لا يملك أي وسيلة تقريبًا للدفاع عن أرضه أمام العدوّ؛ ولذلك ينفخ غضبه وإحباطه في صورة عنف كلامي في وجه زوجته وابنته.

وهناك شكل أخف من أشكال العنف الكلامي، يحدث في شكل اللوم والسخرية من النساء. قرّر عم ((رقية)) - وهو زوج خالته - الانتقال إلى لبنان مع عائلته، لكن من الصعب جداً على الشقيقتين - أم رقية وخالته - تحمل الانفصال والابتعاد. تصف الراوية المشهد على النحو التالي:((خالَتي مَفزوعَةٌ لمُفارَقَةِ أُختِها الَّتي لَم تَعش يوماً إلّا في ظِلّها. ظَلَّتا تَبكيانِ حتى دَخَلَ عَمّي الغُرفَةَ وَنَهَرَهُما... عَلا نَشيجُ الأُختَينِ أكثَرَ. قالَ: يكفيني غِيار واحِد. سَأعودُ بَعدَ يومَينِ، يالَلّا فِزّي أنتِ وَ هِيَ، بِلا دَلَع نِسوان!)) (ص ٤٦). فهذا النوع من السلوك، المصحوب بالسخرية والتوبيخ، يمثل نوعًا من العنف الكلامي الذي يحكم العلاقة بين الرجل والمرأة في المجتمع الفلسطيني التقليدي.

٢-٢-٣. العنف الجسدي

يصاحب العنف الكلامي ضد المرأة العنف الجسدي أحياناً. تصف ((رقية)) مشهد

وصول شقيقيها العائدين من حيفا وفرحة وسعادة والدتها التي لا تستطيع السيطرة على عواطفها لرؤية أبنيها مرة أخرى: ((... أَطلَقَت زُغرودَةً مُجلجِلَةً. وَإذا بِأبي ينزِلُ بِكفِّه على وَجهِها بِصَفعَةٍ مَدويةٍ أعقَبَها صِياحٌ ساخِطٌ: استَحي يا مَرَّة، مائَةُ رَجُلٍ استُشهِدوا في أُسبوعٍ واحِدٍ وَأنتِ تُزَغرِدين!... تَسَمَّرتُ مَكاني، وَبَدَت أُمّي مُبعثرَةً لا تَدري ماذا تَفعَلُ بِهذِهِ الصَّفعَةِ الأولى الَّتي تَلَقَّتها مِن ابنِ عَمِّها)) (ص ٢٧). فكما تبين أن هذا العنف الجامح هو اندلاع الغضب والحزن والإحباط لرجلٍ شاهَدَ احتلال أرضه واستشهاد أبناء وطنه تحت وطأة المعتدين الأجانب، ولكن ليس لديه القدرة على أي ردفعل يشفي غليل صدره، فإذن يصب غضبه على امرأة تسعد برؤية ولديها و تعبر عن فرحه بزغرودة.

يوضح هذا المشهد أن ظروف الحرب والاحتلال كيف تزيد من حدة العنف ضد المرأة. ففي الواقع، استطاعت رواية "الطنطورية" أن تصور تأثير الحرب على زيادة العنف والإضرار بالمجتمع النسائي ضمن التفاعل بين الشخصيات. ولكن العنف ضد المرأة في بعض الأحيان يكون متجذرًا في الاختلافات الدائرة بين الرجل والمرأة، التي تهز أحيانًا أسس الأسرة؛ فهذه سلوك "عبد" الذي هو نفسه يعترف بممارسة العنف ضد مرأته:((قُلتُ لِعَبد الكبيرِ: زارَتني زَوجَتُك بِالأَمسِ. قالَ: جاءَت لِتَشكوني لَك، قالَت لَك إنَّني ضَرَبتُها، أَلَيسَ كذلك؟)) (ص ٢٦٢). وهذا الإقرار يدل على تفشّي الظلم وممارسة العنف ضد المرأة في العائلات الفلسطينية، بحيث لا يحس الرجال بخجلٍ أو ندمٍ في الاعتراف به.

٣-٢-٣. العنف الجنسي

إن النظرة الآلية للمرأة، والتصور السائد بأن المرأة وسيلة لإرضاء وتلبية احتياجات الرجل الغريزية، تعزّز العنف الجنسي ضد المرأة. ولكن في ((الطنطورية)) تتأثر حالات العنف الجنسي بشكل مباشر بالعدوان الأجنبي والحرب الأهلية في فلسطين ولبنان. تروي ((رقية)) عن ((أبي محمد)) الذي قد شاهد اغتصاب فتاة فلسطينية أمام عيني ابيها، خلال احتلال الصهاينة لبعض المناطق الفلسطينية: ((... وَ شَهِدَ شَخصٌ مَعَنا أنَّ الجُنودَ الإسرائيليينَ تَعَدّوا على بِنتٍ أمامَ عَينَيهِ وَلَمّا حاوَلَ أبوها حِمايَتَها قَتَلوهُ)) (ص ٣٠٢). من الواضح أن مثل هذه المشاهد قد تكررت مرات عديدة في مختلف المناطق الفلسطينية، ولكن لم تتم مناقشت القضية في التقارير الرسمية والموثقة. وقد ذكر ((أبو محمد)) سبب ذلك

على رأيه: ((لا أَحَدَ يَتكلَّمُ الآنَ عَنِ اغتصابِ البَنات لأَنَّهُ مَوضوعٌ جارِحٌ وَالأَهلُ لا يرغَبونَ في الخَوضِ فيه. لكنَّنا عَلمنا من بَعضِنا ونَحنُ مُعتَقَلونَ في زِخروف يعقوف. كانَ عندي ٢٢ سَنَةً وَلَم أكن تَزَوَّجتُ وَلكن كانَ عِندي أربَعُ أَخَوات. لَك أن تَتَصَوَّري حالَتي وَمَخاوِفي. كنّا جَميعاً نُفَكرُ في الوَلايا)) (نفس المصدر). وبحسب هذه التقارير غير الرسمية، إن النساء أثناء احتلال فلسطين، قد تعرضوا لخطر العنف الجنسي، بالإضافة إلى الأضرار الواسعة النطاق التي سببتها الحرب.

لكن هذا العنف الجنسي لا يقتصر على ما فعله القوات الصهيونية، بل هناك تقارير مماثلة عن نفس الاغتصابات خلال الحرب الأهلي اللبناني بين مختلف الجماعات والمنظمات السياسية والعسكرية. فلا يزال من الممكن العثور على نساء تعرضن للاغتصاب، حتى من جانب إخوانهنّ العرب.

تذكّر الراوية شخصاً اسمها "بيان" وهي تعدّ تقريراً عن شهادات الناجين من مخيمي صبرا وشاتيلا في لبنان. تقول ((رقية))، التي ساهمت هي نفسها في التعبير عن الفجائع التي حدثت في تلك الأيام، عمّا ستكتب "بيان نويهض" في هذا الكتاب: ((... لابُدَّ أنَّ السِّت بَيانَ تَكلَّمَت مُطَوَّلاً عَمّا جَري في مُستَشفي عَكا، لابُدَّ أنَّها ذَكرَت انتصارَ الَّتي كنتُ استَلطِفُها. اغتَصَبوها حتى المَوت، وَزَميلَتُها الأخرى الَّتي يضيعُ مِنّي اسمُها وَلكنَّني أتَذكرُ وَجهَها وَرَنَّةَ صَوتِها، أعني المُمَرِّضَةَ الثّانيةَ الَّتي تَناوَبوا على اغتِصابِها ثُمَّ قَتَلوها)) (ص٢٣٢). يعتبر اغتصاب النساء وقتلهنّ من أكبر الجرائم الحربية، والتي يتم التستر عليها أحيانًا في ظل الاعتبارات الأخلاقية والعرفية في المجتمعات التقليدية بالطبع؛ ولكن نظرة الروائيين الواقعية تكشف مشاهد هذا القمع الصارخ والعنف البشع ضد المرأة، كما تكشف الشخصيات الرواية في"الطنطورية" عن هذا العنف.

٣-٣. القيود الاجتماعية ضد المرأة

في الأجواء الأبوية للمجتمع الفلسطيني التقليدي في العقود الأخيرة، كانت نسبة النساء والفتيات المتعلمات محدودة للغاية، بل إن العديد من الفتيات حُرمن من الحق في التعليم أو أُجبرن على الانقطاع عن الدراسة بعد إكمال الدراسة الابتدائية. الرواية نفسها أيضا واحدة من هؤلاء الفتيات، حيثُ لا يوافق والدها على استمرارها في التعليم. وفي المقابل يصر

عمها على التحاقها بكلية تدريب المعلمين بعد الانتهاء من المدرسة الابتدائية: ((فاجَأ أَبي بِأَنَّهُ يريدُني أن أذهَبَ إلى كلِّيةِ المُعَلِّمات في القُدسِ، ما إن أُكمِلُ الصَّفَّ السّادسَ وَالأَخيرَ في مَدرَسَةِ البَلَدِ. ساعَتَها حَدَثَت مُشاداةٌ بَينَهُ وَبَينَ أبي...)) (ص ٤٢).

وقد حُرمت نساء الأجيال السابقة عن المشاركة في النشاطات وعن الحضور في الأوساط الاجتماعية. فإن والدة ((رقية)) التي ذهبت إلى مجمع رجال القرية لرؤية زوجها حرصا على الوقوف على مصير ابنيها، تواجه هذا الجواب: ((... عودي إلى البَيتِ، النِّساءُ لا يأتينَ المَضافَةَ هكذا ليَتحَدَّثنَ بِبابِها مَعَ الرِّجالِ!)) (ص ٢٦). تعني كلمة ((مضافة)) في المصطلحات العامية صالة ذا مساحة كبيرة للمجتمعات الريفية حيث تتم مناقشة القضايا المهمة واتخاذ القرارات الجماعية. وهذا المكان محجوز بالكامل للرجال، وما يجري في هذه الاجتماعات هو أيضًا مواضيع ذكورية لا تدركها النساء، إلا إشارات بسيطة يسمعنها أحياناً من رجالهن في البيت. ((النِّساءُ لا يدخُلنَ المَضافَةَ فَلا يصلُهُنَّ مِنَ الأخبارِ إلّا ما يتَفَضَّلُ الرِّجالُ بِنَقلِهِ لَهُنَّ، فَيَتَناقَلنَهُ بَعدَ ذلِكَ فيما بَينَهُنَّ)) (ص ٢٨). هذا البعد عن المجتمع وعن السياسة، رغم أنه يجعل المرأة أقل وعياً بالأحداث والفجائع التي يجري في البلاد، إلا أنها لا تحميها أبداً من عواقب هذه الأحداث وربما تكون العواقب أكثر خطورة وصعوبة على النساء. فتلقي الراوية نظرة نقدية على هذه المسألة قائلة: ((وَحينَ وَقَعَت الواقِعَةُ انهارَ السَّقفُ على الجَميعِ، لا فَرقَ بَينَ رِجالٍ وَنِساءٍ، كِبارٍ وَصِغارٍ... قُلتُ لا فَرقَ. أَتَراجَعُ عَنِ الكَلامِ. أُعيدُ النَّظَرَ فيهِ. كانَ هُناكَ فَرقٌ. نَعَم كانَ فَرقٌ)) (نفس المصدر). تؤكد الراوية – معتمدة على كلمة "الفرق" – على أن تداعيات الأحداث والتطورات السياسية التي لا يحق للمرأة حتى سماعها أو التعليق عليها، قد يكون أصعب بكثير على النساء والأطفال بالنسبة إلى الرجال.

إن مثل هذه القيود على العلاقات الاجتماعية للمرأة، على الرغم من تناقصها من جيل إلى جيل، لا تزال تلقي بثقلها على نساء المجتمع الفلسطيني، وفي بعض الأحيان تمارس النساء أنفسهن توثيق هذه القيود وتسعي في ديمومتها. ففي إحدى مقاطع الرواية، تقول الأم عن ابنتها: ((تَقِفُ مَعَ الشّابِّ وَالنّاسُ تُخَمِّسُ وَتُسَدِّسُ، وَمَن يقولُ كَلِمَةً تُصبِحُ ثاني يومٍ كلام)) (ص ١٤٨). ففي الحقيقة هذه الأم التي تخشي من علاقات ابنتها في المجتمع الذكوري التقليدي وتقلقها ما سيقوله الآخرون عن ابنتها، تقوي عن قصد أو بغير قصد هذا النظام وتدعم القيود المفروضة على النساء والفتيات بشكل مباشر أو غير مباشر.

٤-٣. المرأة والنشاطات الإجتماعية

تلعب شخصية رقية (الراوية) دوراً محورياً في رواية ((الطنطورية))، ويمكن اعتبارها نموذجًا للشخصية الإشكالية المذكورة في نظرية غولدمان. يعتقد "غولدمان" أن الشخصية الإشكالية في الرواية، يبحث عن قيم مثالية وأصلية ونقية في مجتمع يقوم على أساس القيم المادية مثل البضائع ورأس المال وما إلى ذلك. إنه يبحث عن قيم كالحب والحرية والعدالة في مجتمع لا يفهم غير المادة (غولدمان، ١٣٧٧: ٦٦).

تجد المرأة في رواية "الطنطورية"، مكانتها في المجتمع تدريجياً، وبعض الشخصيات النسائية على الأقل يفرضن وجودهن على الرجال في مختلف النشاطات والأوساط الاجتماعية. تدفع الحرب والاحتلال العديد من الرجال للانخراط في التنظيمات العسكرية والمجموعات المسلحة للدفاع عن الأرض، أو متابعة النشاطات السياسية، بعيداً عن الزوجات والأولاد. ويجب على النساء في مثل هذه الظروف الصعبة أن يتحملن بعض المسؤوليات الاجتماعية بالإضافة إلى مسؤولياتهن كأمهات وزوجات، وأحيانًا بصفتهن ربات الأُسَر. تُعدُّ ((رقية)) إحدى هؤلاء الناشطات في مجتمع اللاجئين الفلسطينيين المقيمة في لبنان وتعتبر هؤلاء اللاجئين عائلتها الكبرى: ((صارَت لي عائلَةٌ أخرى. مُمتَدَّةٌ. أطفالٌ. صَبايا. نِساءٌ في مِثلِ سِنّي)) (ص ١٤٦). تحتاج النساء النازحات واللائي تمزق الحرب حياتهنّ، إلى الدعم والمساعدة من جوانب متعددة، ويجب القيام بشيء ما لتحسين مكانتهم في المجتمع؛ لذلك تقوم "رقية" أحياناً بزيارة عائلة الشهداء والمفقودين والمعتقلين وتواسيهم. في بعض الأحيان تدعو النساء إلى التجمعات والاحتجاجات وتقرأ الجرائد للنساء الأميات، وأحيانًا تشارك في إعداد ما تحتاج إليه العائلات - وخاصة النساء المعيلات لأسرهنّ - من الرفاهية العامة. ((أتَردَّدُ على المُخيم. أشُدُّ أزرَ أُمِّ فُلانٍ أو جَارَةً من جاراتها لأنَّ ابنَها اختُفِيَ أو اعتَقَلَ الجَيشُ زَوجَها. أقرأُ جَريدَةَ السَّفيرِ على خَتيارات أُمِّيات... أُشارِك في إعداد مَسيرَة نسائيةٍ صَغيرَة الحَجم... ينَظِّمُها اتِّحادُ المَرأة لأَهالي المَخطوفينَ. أُساهِمُ في مُساعَدَة أُمٍّ كذا وأَولادها الثَّمانية، وَهيَ بِلا عائلٍ وَلا عَمَلَ وَبَيتُها مَهدومٌ.... أُساهِمُ في إعادَة فَتحِ الحَضانات الَّتي دُمِّرَت لمُساعَدَة الأُمَّهات اللّائي يخرُجنَ إلى العَمَلِ بَعدَ أن تَرَمَّلنَ في الحَربِ أو المَجزَرَة أو رَحَلَ أزواجُهُنَّ مَعَ مَن رَحَلَ مِنَ المُقاتلينَ. أرعي صِغارَ امرأَةٍ من مَعارِفي ذَهَبَت إلى عَينِ الحُلوَةِ لتَطمَئِنَّ على أهلِها...)) (ص ٢٦٩).

تمثل رقية في الواقع مجموعة من النساء الناشطات اللواتي يحاولن بدء التغيير من حولهن في خطوات صغيرة قصيرة. وبالطبع، هناك نساء يتخذن خطوات أكبر للتأثير في مجتمعهن وفي الأجيال القادمة. تمثل هذه المجموعة من النساء شخصية "بيان نويهض" التي أمضت سنوات عديدة في جمع الوثائق وملاحظات وشهادات الناس عن مأساة صبرا وشاتيلا.((قَبلَ عشرينَ عاماً اتَّصلَت بي السِّت بَيان نُوَيهِض زَوجَةُ شَفيق الحوت مُديرُ مَكتَب المُنَظَّمَة في لُبنانَ. قالَت إنَّها تَجمَعُ شَهاداتِ النّاجينَ مِنَ المَجزَرَة، أهالي شاتيلا وَصَبرا وَالأَحياءِ المُتاخِمَة...)) (ص ٢٣٠). وبهذه الطريقة، فإن النساء في عمر رقية، وتحت تأثير الاحتلال الصهيوني، يدخلن لامحالة إلى ساحة النشاط الثقافي والاجتماعي ويرسمن صورة مختلفة عن المرأة التقليدية في الأجيال السابقة.

٤. الاختلافات بين الأجيال

البنية التي تسعى غولدمان إلى استكشافها في الرواية ليست ثابتة على الإطلاق؛ بل هي ظاهرة ديناميكية ومتغيرة تتبع عملية تسمي "البناء" مع حركة إلى الأمام. فعلي أساس نظريته، يهدم المجتمعُ البشري الهياكلَ القديمةَ ببطء، ويبني بنية اجتماعية جديدة تستجيب لاحتياجات ومطالب المجتمع كالرفاهية والمثل العليا وغير ذلك (ن.ك. علياري و نوحي طهراني، ١٣٩١: ٢٣).

فإذن تتشكل أحياناً فجوات عميقة بين الجيلين المتتاليين في الرؤي والنظريات الإجتماعية والسياسية والإيديولوجيات وفي أسلوب الحياة أيضا، ويتبين هذا الانفكاك بين الأجيال بوضوح في رواية "الطنطورية". في بدايات هذا البحث، تم ذكر الفروق الرئيسية بين الأجيال الثلاثة من النساء اللواتي لعبن الأدوار في ((الطنطورية))؛ ولكن الشقاق الأكبر بين الأجيال حدثت في الجيل الثالث؛ الجيل الذي أمضي طفولته وشبابه في بدايات القرن الواحد والعشرين.

٤-١. اللباس والزينة

في المجتمعات العربية التقليدية كفلسطين مثلا، يعد الاختيار الذي يقدمه الآباء والأمهات اليوم لصباياهم و فتياتهم في أسلوب اللباس والزينة غير مسبوق في الأجيال السابقة. قد تأثر الناس اليوم بخطاب وثقافة العولمة، ويميل المراهقون والشباب في كل مكان

في الكرة الأرضيه إلى حد ما إلى نمط اللباس الغربي، وهذا الوضع أكثر حدة بين المراهقين ذو جذور شرقية الذين يعيشون في الدول الغربية. فعندما رأت رقية جوهرة صغيرة على أنف حفيدتها هدي، تتذكر أن والدتها كانت تعاقبها بشدة بسبب وشم صغير على وجهها ((... قُلتُ لِهُدي حَفيدَتي، مُعَلِّقَةً على حلية فضِّيةٍ بَحَجمِ الحُمَّصَةِ ثَبَّتَها في طَرَفِ أنفِها: لَو رَأَتك جَدَّتُك! فَنَظَرَت لي مُتَسائِلَةً، لَم تَفهَم إن كانَ التَّعليقُ يشي بِالإعجابِ أم فيهِ انتقادٌ ضِمنيٌّ)) (ص ١٧). فعالَم هذه الفتاة المراهقة مختلف تمامًا عن عالم الفتيات في الجيلين السابقين؛ فمن الطبيعي أنها لا تفهم معنى سخرية جدتها.

٢-٤. الأفكار الجديدة

نجد في مقطع من الرواية "رقية" وهي تحكي لحفيدتها "هدي" قصة الوشم الذي رسمته غجرية على وجهها في أيام الطفولة، ولكن حفيدتها الأخرى، ((أنيس))، التي تعيش في كندا، تنتقد طريقة جدتها في الحديث عن الغجر وأسلوب لباسهم ونبرة صوتهم، وكذلك العقاب البدني الذي تلقتها الجدة بعد حادثة الوشم: ((... واضِح إنَّ التّيتَة الكبيرَة كانَت عُنصُريةً، كلامُها عَنِ الغَجَرِ كلامٌ عُنصُريٌّ، لا يصِحُّ، وَضَربُ الأطفالِ أيضاً غَيرُ مَقبولٍ. وَأَضافَ بِالإنجليزية: !It's politically incorrect)) (ص ١٩).

من الواضح أن المفاهيم والأفكار الكامنة وراء مصطلحات مثل العنصرية وحقوق الطفل وما إلى ذلك، هي مفاهيم جديدة يعرفها الجيل الجديد تحت تأثير نظام التعليم والدعاية وخاصة في النظام السياسي والاجتماعي لبلد مثل كندا، ومثل هذه المفاهيم في البلدان الغربية أكثر انتشاراً بالنسبة إلى المجتمعات العربية التقليدية، حيث نظام التعليم والدعاية تؤثر على عقول الناس منذ الطفولة.

فإذن يعَدُّ هذا المقطع أفضل مثالٍ لتنوع الشخصيات وقد ظهرت في شكل اللغة واللهجة والفكر، وتعكس تنوع الأجيال المختلفة من النساء الفلسطينيات بشكل جميل.

٣-٤. الاختلاف في العادات والقيم

بمرور الوقت وبتأثير التغيرات الثقافية والاجتماعية، يتغير بعض القيم الاجتماعية أيضًا في الأجيال اللاحقة. كمثال على هذا التغيير، يمكن الإشارة إلى ثقافة الضيافة في المجتمعات

التقليدية. تتفاجأ ((مريم)) ابنة ((رقية)) برؤية والدتها التي تحاول بجد في إعداد ملزومات لا نهاية لها لضيافة مقبلة: ((تُعلِّقُ مَريمُ على انهماكي في الإعدادِ لِوُصولِ وِصالٍ وَزَوجَةِ حَسَن: هَل تَأتيانك مِن مَجاعَةٍ؟ تَضحَك. أَرُدُّ: هذِهِ طَريقَتُنا في إِكرامِ الضَّيفِ!)) (ص٤١٢).

فمن وجهة نظر ((مريم))، ليس من الضروري إنفاق كل هذا الوقت والمال وإعداد كمية كبيرة من أنواع الطعام المختلفة لاستقبال ضيفين؛ لكن الأم من جيل آخر وتحاول تعليم ابنتها سنّة ((إكرام الضيف)) بعبارة فيها شيء من السخرية والتوبيخ: ((هذه طريقتنا في إكرام الضيف!)).

ولكن في مشهد آخر "مريم" هي التي تحاول مراقبة سلوك والدتها في مواجهة الظواهر الجديدة. ((رقية)) وابنتها في القطار وهو يقترب من الإسكندرية:((عندَما قُمتُ مِن مَقعَدي في القِطارِ، قالَت مَريمُ: ماما كلُّ النّاسِ قاعِدَةٌ في أماكِنِها. سَيضحَكونَ عَلَينا. وَلكنَّني قُمتُ وَتَبِعَتني. وَكانَت على حَقٍّ لِأَنَّنا وَقَفنا بِجِوارِ بابِ العَرَبَةِ رُبعَ ساعَةٍ)) (ص ٣٩٦).حياة ((مريم)) مع والدتها ((رقية)) مليئة بمثل هذه الصراعات السلوكية والثقافية التي تقوم على الاختلافات بين جيلين من النساء العربيات الفلسطينيات في الغربة.

٤-٤. الاختلاف بين الأجيال في توقيت وكيفية زواج الفتيات

((رقية)) التي قبلت عن طيب خاطر عرضًا للزواج من صبي من قرية مجاورة في الرابعة عشرة من عمرها وتزوجت من ابن عمها في السادسة عشرة، تعرف الآن أن ابنتها لن تتزوج أبدًا حتى تكمل دراستها الجامعي.((حَدَّثَتني جارَةٌ مِنَ الجاراتِ أَنَّها تَرغَبُ في خِطبَةِ مَريم لِابنِها... أطلَعَتني على صورَتِه. قُلتُ مَريمُ صَغيرَةٌ. سَتَدرُسُ في الجامِعَةِ بَعدَ انتِهائِها مِنَ المَدرَسَةِ...)) (ص ٣٨٠). ربّما تعتقد ((رقية))، مثل جارتها، أن زواج الفتاة في سن مبكرة هو لصالحها ولهذا يناقش الأمر مع ابنتها، لكنّها تعرف سابقاً أن لأبنائها وبناتها رأيًا مختلفًا عن رأيها: ((حَدَّثتُ مَريمَ... راحَت تُعَلِّقُ على الشّابِّ الَّذي يطلُبُ يدَها دونَ أن يراها وَيكتَفي بِعَينَي أُمِّه. هَل سأَتَزَوَّجُ أُمَّهُ؟! ثُمَّ راحَت هِيَ وَصادِق يتَنَدَّرانِ على الأَمرِ وَيحَوِّرانِ فيهِ وَيبَدِّلانِ إلى أن أصبَحَ مَوضوعاً للضَّحك)) (ص ٣٨١). في هذا المشهد أكثر ما تركز عليه "مريم" هو اختيار الأم للعروس، وهو أمر شائع في المجتمع العربي التقليدي، بينما أصبح المجال فسيحاً لأبناء الجيل الثالث للتعارف والعلاقة بين الفتاة والصبي

قبل الزواج؛ ومع هذا حينما التحقت مريم بالجامعة، تشعر والدتها بالقلق من زواجها المتأخر:

((هيَ تَعتَقِدُ أَنَّني قَلِقَةٌ لِأَنَّني أُريدُها أن تَتَزَوَّجَ. أَتَمَّت الثّانيةَ وَالعِشرينَ. مَتى تَتَزَوَّجُ؟ عَبد تَجاوَزَ الخامِسَةَ وَالثَّلاثينَ. هَل تَصيرُ مِثلَهُ؟)) (ص ٤٢٣). فبالطبع، ((رقية)) ليست قلقة على ابنتها فحسب، بل لابنها أيضاً الذي يكبر مريم بـ١٣ سنة ولم يتزوج بعد.

أخيراً فإن هذا الاختلاف بين الأجيال جميل وجدير بالثناء في نظر "رقية". فهي التي تُعتبر من الطبقة الوسطي في المجتمع من حيث الاقتصاد الاجتماعي وأيضًا من حيث مستوي التعليم، تمتلك شعوراً لطيفًا من مشاهدة الفتيات والفتيان الذين لديهم وعي ورؤية أعمق وثقة بالنفس أكثر من الجيل الماضي وهم يحضرون في الساحات الاجتماعية والسياسية: ((زَمَنٌ يختَلِفُ. جَميلٌ؟ بَدا لي ساعَتَها أَنَّهُ جَميلٌ. أَتَطَلَّعُ: ثِقَةٌ ما أَو أَمَلٌ أَو رُبَّما قُوَّةٌ في الوُجوهِ، في هَيئَةِ الشَّبابِ وَالصَّبايا، في مِشيَتِهِم وَجِلسَتِهِم وَحَرَكَةِ اليَدِ حينَ تُلَوِّحُ هكذا بِتِلقائِيَةٍ، وَلَفتَةِ الرَّأسِ حينَ تَلتَفِتُ. في ضَحِكاتِهِم، في نَبرَةِ الصَّوتِ وَهُم يَتَحَدَّثونَ أَحاديثَ كُلَّ يومٍ. أَلحَظُهُم. أَتَحَدَّثُ مَعَهُم...)) (ص ١٤٨). هذه صورة للشخصية الرئيسية وراوية "الطنطورية" التي تدرك الفروق بين الأجيال والتغيرات في مستوي وعي وثقافة مجتمعها وتحس بالسعادة من هذه التطورات والتغيرات.

٥. الاستنتاج

استطاعت رواية رضوي عاشور "الطنطورية"، باستخدام شخصيات نسائية وتصوير نشاطهن الاجتماعي، أن تعيد خلق جوانب من بنية المجتمع النسائي الفلسطيني على مدي السبعين سنة الماضية. النساء في هذه الرواية ممثلات لثلاثة أجيال عكست من خلال تصريحاتهن وأفعالهن الاجتماعية العديد من هموم وقضايا المرأة في المجتمع الفلسطيني الذي مزقته الحرب. استندت الدراسة الحالية إلى آراء ونظريات لوسيان غولدمان، الذي يعتقد أنه في التحليل الاجتماعي للرواية، يجب السعي لاكتشاف الدرجة التي تتوافق الهياكل الروائية مع هياكل الموجود في المجتمع المقصود وكيفية تطابق النظرة العالمية للرواية مع البني الاجتماعية المسيطرة على عالم الواقع. المجموعة أو الطبقة الاجتماعية في نص الرواية ومعالجة الشخصيات الإشكالية فيها، تصبح محملاً لتمثيل الهياكل الاجتماعية التي تحكم

تلك الطبقة في العالم الخارجي.

أظهرت نتائج البحث أن القضايا الإجتماعية في رواية "الطنطورية" مثل هيمنة النظام الأبوي، والهيمنة الرمزية للأب على الأسرة، وحرمان الزوجة من مكانة تليق بها في الأسرة، واستخدام العنف اللفظي والجسدي والجنسي، وتطبيق مختلف القيود الاجتماعية، يهيمن على المجتمع النسوي في ((الطنطورية)) التي تمثل المجتمع الفلسطيني في مختلف قضاياها و إشكالياتها. تتمثّل هذه الأعراف والتركيبات الاجتماعية خلال الفترة التي نوقشت في الرواية (١٩٤٨-٢٠٠٩) في شكل أفعال وردود فعل الشخصيات من جميع الأجيال الثلاثة التي لهن دور في الرواية.

تبدو هذه القيود أكثر وضوحًا في الجيل الأول وفي الجيل الثاني وتحت تأثير ظروف الحرب والاحتلال والتهجير، من خلال الشخصيات الإشكالية والتفكيكية، فهناك دلائل على هيمنة المناسبات والإجراءات الاجتماعية الذكورية ضد المرأة، ولكن نساء الجيل الثاني قد استطعن بناء مجتمع نسوي لها استقلالها النسبي و نشاطها الإجتماعي والاقتصادي و السياسي شيئاً فشيئاً، ولكنّ البناء الحقيقي يمكن رؤيته في فتيات الجيل الثالث وهي تختلف تمامًا عن الجيلين السابقين في طريقة النشاط الاجتماعي، وطريقة ارتداء الملابس، والعلاقات مع الجنس الآخر، ووقت الزواج وكيفيته، وكذلك في الأفكار التقدمية والليبرالية. فإذن يمكن القول بأن الكاتبة قد استطاعت أن تخلق شخصيات نسائية متنوعة ومتعددة، تُمثّلُ تعدُّدَ الآراءِ وتنوعها ووجهات النظر الاجتماعية للمرأة الفلسطينية خلال أكثر من سبعة عقود، فتخطيط الرواية وحبكتها تتوافق مع البني الاجتماعية التي تحكم المجتمع الفلسطيني.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً - الكتب العربية:

- حيدري راد، سميرا (١٣٩٦ش)، شخصية المرأة في أعمال رضوي عاشور الروائية (الطنطورية، أثقل من رضوي و الصرخة نموذجاً)؛ أطروحة لنيل درجة الماجستير، جامعة تربيت مدرس.
- عاشور، رضوي. (٢٠١٠م). الطنطورية؛ قاهره:دار الشروق.

الكتب الفارسية:-

- دوبوار، سيمون. (١٣٨٠). الجنس الثاني؛ ترجمه قاسم صنعوي، المجلد الأول، طهران: توس.
- غولدمان، لوسيان. (١٣٧١). علم اجتماع الأدب، الدفاع عن سوسيولوجيا الرواية؛ ترجمه محمد جعفر پوينده، الطبعة الأولى، طهران: هوش و ابتكار.
- _____. (١٣٧٧). مقدمة في علم اجتماع الأدب؛ ترجمه محمد جعفر بوينده، طهران: نقش جهان.

ثانيا - المقالات الفارسية:

- جوادي يگانه ومحمد رضا وآسية ارحمي. (١٣٨٨). "الطالبات وقراءة الروايات". فصلية المرأة في التنمية والسياسة - بحوث المرأة، العدد ٢٧، ص ٣١-٥٠.
- جوكاري، مهناز وعلي عربي وعلي روحاني. (١٣٩٨). تمثيل شخصية أنثوية في رواية قبل وبعد الثورة الإسلامية الإيرانية. دراسة حالة لرواية سو وشون و چراغها را من خاموش مي كنم "؛ مجلة المرأة والمجتمع، المجلد ١٠، العدد ٢، الصيف، ص ٢٦٣-٢٨٢.
- خجسته، فرامرز و جعفر فسائي. (١٣٩٦ش). ((بازتوليد مناسبات سلطه در رمان شوهر آهو خانم))؛ نشريهي نقد و نظريهي ادبي، سال ٢، دوره ١، بهار و تابستان، صص ١٧-٣٨.
- خجسته، فرامرز و جعفر فسائي. (١٣٩٦). "استنساخ علاقات الهيمنة في رواية زوج سيدة أهو "؛ مجلة النقد والنظرية الأدبية، المجلد ٢، المجلد ١، الربيع والصيف، ص ١٧ - ٣٨.
- عباسي، نسرين و صلاح‌الدين عبدي (١٣٩٨)، تمثيل طرق الكلام السردي في رواية استقرار فلسطين (دراسة حالة: رواية الطنطورية لرضوي عاشور"، مجلة اللغة العربية وآدابها (المجلة السابقة للآداب والعلوم الإنسانية)، السنة الحادية عشر، العدد ١، متتالية العدد ١٧٧/٢٠/١، الربيع والصيف، ص ٢٣١ - ٢٥١.
- عبدي، صلاح الدين و زهرا افضلي و نسرين عباسي (٢٠١٦)، "دراسة وتحليل المركزية في رواية الطنطورية لرضوي عاشور"، المجلة الفصلية للغة موبين (بحث في الأدب العربي)، السنة السابعة، فترة جديدة، عدد. الرابعة والعشرون، الصيف، ص ٥٩ - ٨٣.
- عبدي، صلاح‌الدين و نسرين عباسي ١٣٩٨) "مستمع السرد وموقعه في رواية الطنطورية لرضوي عاشور"، مجلة نقد الأدب العربي، العدد ١٧، ص ١٨٧ - ٢١١.
- علياري، شمسي و ليلا نوحي طهراني. (١٣٩١ش). "العلاقة بين مستوي التمكين ونوع العلاقات بين الجنسين للشخصية الأنثوية الرئيسية في رواية تهران مخوف (مرتضي مشفق كاظمي)"؛ مجلة علم اجتماع الفن والأدب، المجلد ٤، العدد ٢٠، الخريف والشتاء، ص ٢١ - ٣٨.

- فكوهي، ناصر. (١٣٨٤ش). ((بيير بورديو: مسألة المعرفة والمثقفين؛ مجلة العلوم الاجتماعية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة فردوسي مشهد، المجلد ٢، العدد ١، ص ١٤٠-١٦٢.
- قنبري، بيتا و امين دايي‌زاده جلودار. (١٣٩٥ش). "تكييف النظرية الاجتماعية للبنية الأدبية الاجتماعية لروايات سيمين دانشور"؛ مجلة المقالات الأدبية، المجلد ٤٩، العدد ١٩٤، الخريف، الصفحات ١-١٨.
- كمالي، افسانه و محسن گودرزي و زينب حاجتي. (١٣٨٨ش). "تمثيل تجربة المرأة في العالم الاجتماعي في الرواية: تحليل اجتماعي لخمس روايات مبيعاً من عام ١٩٩٦ إلى عام ٢٠٠٦"؛ مجلة الدراسات النفسية الاجتماعية للمرأة، المجلد ٧، العدد ٣، الشتاء، ص ٩٩-١١٧.
- يداللهي آهنگر، جمشيد و صمد صباغ. (١٣٩٣ش). "دراسة سوسيولوجية لرواية نساء بلا رجال لشهرنوش بارسي بور"؛ مجلة الدراسات الاجتماعية، المجلد ٧، العدد ٢٥، الشتاء، ص ٥٩-٧٦.